وقد أرجع السبب في قبح بعض الألفاظ التي أوردها ابن سنان إلى طبيعة تكوين حروفها لا إلى عدد هذه الحروف [١] .

ومن العجيب أنه عاد وقبل المقياس السابق ، ولكن فيما يتصل بالأصول فقط ، وأنها لا تحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي ، مثل : (عذب) و (عسجد) ، أما الخماسي من الأصول فإنه قبيح ، ولا يكاد يوجد منه شيء حسن ، مثل : (جحمرش) و (صهصلق) ، ولكنه يعود ويقرِّر أن الحكم النهائي في هذه المسألة لا يرجع إلى الطول والقصر ، وإنما إلى نظم الحروف بعضها مع بعض ؛ ولذا فإن كلمة مستشزرات التي وردت في قول امرئ القيس :

غَدائِرُهُ مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلا تضلُّ المدارى في مُثَنّى وَمُرْسَلِ

لا يرجع قبحها إلى عدد حروفها ، وإنما إلى نوعية هذه الحروف ؛ لأننا لو قلنا : (مُسْتَنْكرات) أو (مُسْتَنْفرات) لما كان في اللفظتين ثقل أو كراهة [٢] . وأعتقد أن هذا المقياس النقديَّ يكاد يتناقض مع مقولة النحاة التي تبناها البلاغيون عن (قوة اللفظ لقوة المعنى) . ويبدو أن هذا الاصطلاح قد دخل إلى المجال البلاغيِّ عن طريق ابن جنّي الذي قَدَّم في (الخصائص) بابًا تحت هذا العنوان ، يقصد به أن التحوُّل في بنية اللفظة بالزيادة يتبعه زيادة في المعنى ، يتفاوت من حالة لأخرى .

ويبدو — أيضًا — أن الخليل قد حاول الربطَ بين استطالة اللفظة والمعنى الذي تدل عليه ، وعلَّل للتضعيف في الفعل الثلاثي (صر) لمشابهته استطالة

(١) ابن الأثير : المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .
(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .